دراسة

الملامح السياسية لتاريخ الكورد الحديث والمعاصر

صباح آرام

-أمن الحدود ومسمار جحا

هناك فارق كبير بين وضع شعب، له أرض ووطن، تؤكده الشواهد التاريخية الدامغة، كالشعب الكوردي، وبين شعوب آخرى تمكنت من أراضي الغير نتيجة طفرات ودوافع طارئة، كالعصور الجليدية، والكوارث الطبيعية، او الغزو بفعل عوامل مستحدثة.

لقد تحركت جغرافية اوروبا في القرون القليلة السابقة للميلاد بشدة بفعل موجات (البرابرة) مثل (الهون) و (القوط) و (الكلت)، تلك القبائل التي (دفعتها قسوة الظروف الى القيام بغارات مدمرة للسلب والنهب...)، كم دفعت الحروب الدينية في نهاية القرون الوسطى في اوربا، موجات بشرية متتالية نحو الامريكيتين، وقد شكلت تلك الموجات نواة مجتمعات جديدة مثل المجتمع الامريكي، وفي التاريخ القديم تظهر شواهد الترحيل القسري من خلال (الأسر البابلي الأول والثاني)، في الصراع بين البابليين والعبرانيين. وبينما يدفع الزحف البابلي اولا والزحف الروماني تالياً في التاريخ القديم، العبرانيين، الى خارج جغرافية الشرق، يعود هؤلاء في التاريخ الحديث في عملية مضادة لدفع الفلسطينيين الى خارج جغرافية المنطقة ولكن تحت مظلة «الصهيونية» التي قلبت خارطة المنطقة لصالحها.

وإنطلاقاً من أعماق التاريخ القديم حيث يدفع الجليد موجات البشر للزحف جنوباً، هرباً من زحف الجليد في الشمال، وتتوالى الموجات نحو القفقاس واواسط آسيا واطراف قزوين وسلاسل جبال زاگروس، ويدفع الصراع الفينيقيين للهجرة نحو شمال أفريقيا، وفي الوقت الذي تتحرك فيه خارطة الشرق القديم حيث ينزاح الفينيقيون خارج الشام، في تلك الفترة في التاريخ القديم تحديداً، نجد للكورد تواجداً متأصلاً في أرض كوردستان. ولاحرج هنا في العودة الى رأي (فلاديمير مينورسكي)، حسبما اورده العلامة (١) محمد أمين زكي يقول هذا الاخصائي البارع، إن من المحتمل جداً أن يكون الشعب الكوردي قد هاجر في الأصل من الشرق (شرقي إيران) الى الغرب (كوردستان الحالية). وإستوطن فيها منذ فجر التأريخ- وهذا لايمنع إنه كان قبل قدوم هذا الشعب المهاجر، هناك في كوردستان الوسطى، قوم أو أقوام مختلطة تعيش تحت أي إسم مشابه لأسم ذلك الشعب الوافد، كـ (كاردو) مثلا فأختلط الشعب الوافد بذلك القوم، أو بتلك الاقوام المحلية وأندمج فيها إندماجاً كليا وصاروا جميعا أمة واحدة على مدى الأيام والظروف.

ويقول المستشرق (توردانجين) إنه قد إطلع في المجلة الاشورلوجية، على لوحتين اثريتين، عليهما بعض نقوش وكتابات يرجع تاريخها الى ألفي سنة قبل ميلاد المسيح. مفادها انه كان هناك أقليم يدعى (كار-داكا) بجوار أهالي-سو- (SU) الذين كانوا يسكنون في جنوب بحيرة (وان). ويقول مؤلف كتاب "شرفنامة" إنه توجد في منطقة "بدليس" قلعة تسمى (سوى-Suy) وبعد هذا التاريخ بألف سنة حارب (تيغلات بلسر)، قوماً في جبال (آزو-Azu)، يدعون (كورتي) (Kurtie) فأنكسر في قتالهم شركسرة. ويقول المستشرق (درايور) إن جبال (آزو) هذه هي جبال (هازو) الحالية، أعني جبال (صاصون).

ولايذكر المؤرخ الشهير (هيرودتس) شيئاً عن هذا الأسم او مايقاربه في أخبار القرن الخامس قبل الميلاد. ولكنه يقول: إن المقاطعة الثالثة عشر من مقاطعات الدولة (الاخمينية) التي ألحقت فيما بعد بمقاطعة (ارمينية) كانت تسمى حينئذ بأسم (بوختونج) فيقول كل من المستشرقين (نولدكه، كيرت،م. هارتمان) إن كلمة (بوختان-بوهتان-بوتان) الحالية

إن هي الا محرفة عن الكلمة السابقة (بوختوتج).

ويذكر (زينوفون) في رجعة العشرة آلاف التي حدثت في سنة (٤٠٠-٤٠١ ق.م) الشعب الكردوكي، قائلاً: إن موطنهم يمتد الى اقليم (بوهتان).

فمن ذلك الوقت تجد هذا الأسم مذكوراً أو دائماً مع هذه المنطقة التي تقع في الضفة اليسرى لنهر دجلة وفي أطراف جبل الجودي، حيث أطلق المؤرخون والمحررون المشاهير اسم (كوردوئين) على هذه المنطقة. (يحتمل ان يكون السبب في تغيير وتحريف هذا اللفظ صعوبة النطق بالكاف في اللغات السامية. دراوير). هذا وفي اللغة الارامية يطلق على هذه البلاد إسم (حوض كاردو) كما إن إسم (گازارتاي كاردو) كان يطلق على مدينة (جزيرة إبن عمر) الحالية. وعرفت هذه المنطقة بين الأرمن قديماً بأسم (كوردوز Kordodh) كما عرفت بين العرب والمسلمين (مثل البلاذري) و (الطبري) بأسم (بقردي- Bakarda) و (قردي) ويقول ياقوت الحموي نقلاً عن إبن الأثير. إن بلاد (بقردا) قسم من بلاد (جزيرة إبن عمر) فكما بها مائتا قرية وضيعة. ومدن (الثمانين،"جودي" فيروز، شابور) كانت في الضفة اليسرى لدجلة ازاء (بازابدا، Bazabda)، (هذه المدينة كانت واقعة في الضفة اليمنى لدجلة). هذا وقد إندثر أخيراً إسم (باكاردا-بقردا) الذي كان يطلق في أوائل العهد الاسلامي على المنطقة كلها وحلت محله في الكتب الأسلامية والعربية أسماء أخرى مثل (جزيرة ابن عمر) و (بوهتان).الخ.

ويؤخذ من اقوال وروايات العرب والأرمن. إن أراضي بلاد (كاردو) هذه ضيقة ومحدودة جداً. وفي الواقع إن حدود بلاد (كوردوئين) هذه غير معلومة لنا. وكل ما هنالك إن لدينا معلومات ومباحث عن ثلاث مدن كانت في ساحل (دجلة) وهي (ساريز) و (ستالكا) و (پنياكا) (فينك الحالية). ويؤخذ من التقرير القيم الذي وضعه المستشرق (سترابو) خصيصاً لهذا الغرض، إن لفظ (كوردوا) كان يطلق ردحاً من الزمن على الجبال التي بين (دياربكر) و (هوش) الحاليتين.

ومهما يكن من أمر فالذي لاشك فيه إن (كاردوخوي)، كان موجوداً وكان يدل على مسماه الحقيق ولو كان ذلك بشكل آخر (والظاهر إن اللفظ الاخير أعني "خوي" إستعمل بدل "Ku" الذي هو علامة الجمع في اللغة الارمنية فنتج من هذا إن علماء اليونان والرومان أطلعوا على هذه الاعلام والاسماء في الكتب الأرمنية فأخذوها كما هي مصبوغة، بالصبغة الارمنية.).

ويرى (زينفون) إن شعب (كاردشو-كاردكو) لم يكن خاضعاً لأحد لا لدولة (ارتاكسيدس-اردشيركان) ولا لحكومة الأرمن.

هذا وفي القرن الأول (ق.م) إستولى (ديكران) الثاني على مملكة «كوردوئين» وقتل ملكها (زاربيونوس). وفي سنة ١١٥م كان ملك "كوردوئين" يدعى "مانيساروى" ويرى العلامة المستشرق (هايشمان) إن إستيلاء الحكومة الارمنية على هذه المملكة كان إسمياً فقط.

ولايستبعد أن تكون عشيرة إيرانية قد قطنت في عهد (زينفون) في شمال (دجلة)، ولكن وجود عشيرة كهذه في تلك الجهات لايدل على أصل القومية التي ينتسب اليها الـ (كوردوش)، لأن لهذا الأسم أساساً واشتقاقاً في اللغات السامية. ومعنى (كاردو) في اللغة الاشورية- القوي. او العامل ومعنى كاردو، كون الانسان قويا (القوة).

ومن جهة أخرى فأن هنالك بعض تشابه لفظي بين هذه الكلمات والالفاظ المتقدمة وبين لفظ (خالدي) والخالديون إشتهروا في عهد الاشوريين بأسم (اورارتو-Urartu) أو Urshtu اذ كانوا ساكنين في اطراف جبل (آرارات).

وفي اواخر القرن التاسع قبل الميلاد كان الشعب (الخلدي) هذا موجوداً في أرمينية. ثم تمكنوا من تأسيس حكومة قومية عاشت حتى اوائل القرن السادس ق.م، في اطراف بحيرة (وان). ويقول العلامة (لهمان هويت) إعتماداً على كتاب (كوتنكسن) المطبوع سنة ١٣٢٥هـ-١٩٠٧م. إن الشعب الخلدي هذا قد إمتزجت به عناصر غريبة. ويرى العلامة (ماير) إن الموطن الاصلي لهذا الشعب كان على الارجح في حوض (اراس-اراكس) الاوسط ولذلك بحث عنهم في تلك الجهات.

والخلاصة إن هؤلاء الخلديين هجروا بلادهم هذه ونزحوا الى جبال ووهاد البلاد المجاورة. من جراء إستيلاء الأرمن على كوردستان حوالي القرن السابع ق.م. ولكن اسم هذا الشعب كان مشهوراً في منطقة (وان) ولابد أن مدينة (خلاط) الواقعة على الضفة الشمالية لبحيرة (وان) تحتوي على اثار وعاديات مختلفة من الشعب المذكور.

وسواء أصح القول بأن قوم (كاردو) من الاقوال السامية. أم لم يصح. او أنهم سكان اصليون لبلادهم. فالذي لاشك فيه هو ان بلادهم (كاردشو) القديمة هي وسط الموطن الاصلي للشعب الكوردي الآن. فاذا ثبت هذا يجب علينا أن نسلم بأن كلا من لفظي (كوردشوي) و (كوردي) يشترك إشتراكاً لفظياً مع الآخر. وهذه الفكرة أصبحت بديهية منذ إبتداء القرن العشرين.

وإذا أمعنا النظر مرة أخرى في هذه المسألة. نجد إن الشعب الكوردي بأكمله متحداً مع الخلديين وإنهما من جنس واحد، إذ يقول المستشرق (رايسكة- Reiske) في شرحه لكتاب (قسطنطين بورفيرو جنيتوس) أن كلمات (خلدي، كوردي، الكرد) مع كلمة (كوردياي) أسماء مشتركة تدل على مسمى واحد.

وهناك فكرة آخرى مثل هذه موجود في مقدمة كتاب (ليرج) وقد حولت أبحاث ودراسات العلماء امثال (م.ها. رتمان، نولدكه، ويسباخ) هذه المسألة الى إتجاهات جديدة.

حيث يقول هؤلاء أنه يجب لمعرفة الفرق بين فرعي (الكورد) و (الكاردو)، القيام بدراسات لغوية عميقة. فينبغي البحث عن اصل الشعب الكوردي بين (الكورتيوي) وسيرتي Cyrtii بواسطة دراسة الآثار والمؤلفات الشهيرة للعلماء الاخصائيين في عاديات (ميديا) و (ايران) ويؤيد هذه الفكرة طبعاً وجود عشائر كوردية كثيرة في (فارس) في عهد الساسانيين (انظر كارنماي اردشير بابكان).

هذا وإن كـان هناك فـرق بين لفظي (كـورد) و (كـاردو) فـلا يؤثر مـثل هذا الفرق في حل قضية كبيرة كهذه، ولنا أن نتـسـاءل ونقـول، كـيف ومـتى جـاء السيرتيون (اكراد ايران) الى غربي جبال (زاغـروس) واقـامـوا في بلاد (كـاردو) القديمة بشمال سوريا وفي جبال (انتي طوروس)، حقاً ان هذه المسألة لاتزال في حاجة شديدة الى التحقيق والتمحيص ويمكن اولاً ان تكون الفـتوحـات الميـديه والايرانية سبباً قوياً للمهاجرات من البلاد الايرانيـة. مـثل مـهـاجـرة قـسم من (اساغاريتا) الذين كان موطنهم الاصلي اقليم (سيستان) حيث وجدت عشيرة (آسـاغـاريتـان) هذه قـاطنة في سـهل آشوريا حوالي مدينة (اربيلا- اربيل) في عهد الاشوريين...

هذا وفي الحروب التي دامت من سنة ٢٢٠ حـتى ١١٧ ق.م بين الرومـان و السلوقيين، وبين ملك (پيرغامون) إشتركت فـيـهـا جـيـوش مـسـتـأجـرة من هؤلاء السـيـرتيين (انظر ليـواي، بولي بيـوز، ويسباخ).

ونرى صـفـحـة غـريبـة عن بلاد (كـورجـيخ- Kordchihh) في كـتـاب جغرافي (ارمينية في القرن السابع) حيث ورد فيه مايأتي: "وفي عهد- فوستيوس بيتراتيتوس) في القرن الرابع كان لفظ -كـورد جيخ- علمـاً لقـضـاء بجـوار- سلماس- ثم إتسعت مساحته حتى صار منطقة تمتد من (جولمريك) حتى (جزيرة إبن عمر) وتحتوي على هذه الاقضية، كوردوخ، سيكور دويخ- كوردنخ) آيتوانخ. ايكارخ. (مـــوءولوخ-أوثولانخ)، (اورسـيـروخ- اورسـيـانخ)، (كاراثونيخ-سارابونيخ)، جاهوك والباك الصغير (هارثمان وهويشمان).

وقد رأينا إن التطورات والتحولات التي حصلت تدريجاً وعلى مدى الأيام ماحدثت إلا في هذه الاقضية الثلاثة (كوردوخ، كورديخ، تموريخ) التي يقول المستشرق (فورستوس-) عنها إنها واقعة في مملكة (كوردوئين) القديمة. وإن (كوردوخ) صار أحد أقضية مقاطعة (كورجيخ) وزال إسم (تموريخ) من الوجود.

وحل محله إسم كورديخ وهكذا إتحدت قضية الشمال والشرق (اليمين) والجنوب وإندمجت بعضها في بعض.

وقد بذل المستشرق هيشمان جهوداً علمية عظيمة في التوفيق بين إسم (كوردريخ-كورديخ) وبين إسم (كورتيوي) ومع ذلك إن الفرق اللساني الذي أثبته كل من (هارثمـان) و (تولدكي) لايمنع من وجود شكل مختلط. لأن نولدكي نفسه وضع مجموعة ثالثة.

فقال إن (كارتيواي) باللغة الآرامية وكلمة (كارثاوية) بالعربية ماهي الا لفظان والآن على الشعب (الكوردي). (هوفمان).

فينتج من هذا إنه في عهد الفتوحات العربية إن اللفظ المفرد (الكورد) وجمعه (الاكراد)، صار علماً على شعب إيراني خليط أو شعب مجاور لأيران. وإنه كان بين ذلك الشـعب بعض من السكان الاصليين والمحليين مـثل «كـاردو» و«تموريخ» «تامـوراية» الذين كـانوا متوطنين في منطقة كان مركزها. (ألكي) أو (آلك) ومثل «خويهثيـاي- الخويثية» الذين كـانوا في «خـويت» بقـضـاء (صاصون) و (اورتايية- الارطان) الذين كانوا على ساحل الفرات. وكان بعض هذا الشعب سامياً. كتاب (أنساب عامة العشائر الكوردية) والبعض الآخر أرمنيا على ما يظهر. حيث يقال إن أصل عشيرة (ماميكان) الكوردية منحدر من عشيرة (ماميكونيان) الارمنية.

وفي القرن العشرين، ثبت ثبوتاً قطعياً وجود عنصر إيراني غير كوردي مثل (الگوران، الزازا،) بين الشعب الكوردي. كما إنه يوجد في بعض جهات آخرى من كوردستان مثل (السليمانية، سابلاخ، قـوطور، ..الخ) بعض سـلالات أجنبـيـة وعشائر قادمة من الخارج توطنت بتلك الجهات وحكمت فيها. كبقية (الكوره سينلي) الذين يقيمون بين ظهراني عشيرة الشكاك في جهة (قوطور).

يقـول الاسـتـاذ (طه باقـر)(٢) (إن الهياكل المكتشفة في كهف شانيدر على قدر عظيم من الأهمية لأنها أولى بقايا عظمية تكتشف في العراق من إنسان العصر الحجري القديم الذي عاش في كوردستان العراق قبل نحو ٦٠,٠٠٠ عام أو يزيد).

ويقـول أيضـا «ومع إن هذا الانسـان ليس أقدم نوع من انواع البشرية التي عاشت في العصر الحجري القديم، بيد إن اكتشاف بقايا له في شمالي العراق يشير الى الامكانات المحتملة في العثور في المستقبل على أنواع أقدم. وقد سبق إن نوهنا بتوقف التحريات الأثرية في شمالي العراق وهي لاتزال في بدايتها المثمرة ولنا وطيد الأمل بأن إستئناف التحري سيكشف لنا عن نتائج على قدر عظيم من الأهمية... وهناك العشرات بل المئات من الكهوف والملاجيء الجبلية والمواضع المكشوفة في كـوردسـتـان العراق، سجل الكثير منها ولكن لم تجر فيها التحريات الأثرية».

ومن الامـاكن الأثرية في كـوردسـتـان والتي يوردها الاستاذ طه باقر كهوف (زرزي) في السليمانية و (هزار ميرد) في السليمـانيـة أيضـا و شـاندر في أربيل و(شمشارة) في رانية و (تل قاليج آغا) في اربيل و (بردة بلكا) و (باسموسيان) و (كومريان).. الخ..

ويذكر صلاح سعدالله في كراسه الموسوم (مسيرة العشرة آلاف عبر كوردستان) (... وصل كريسوفوس الى القمة قبل أن ينتبه العدو ثم تقدم بثبات، وبعد عبور وحدات الجيش المختلفة من المضيق، تبعته الى القرى الواقعة في الجبال.. وقد هجر الاكراد بيوتهم حالاً والتـجـاوا الى الجـبـال مع نسـائهم وأطفالهم مخلفين ورائهم كثيراً من الطعام الذي إستولى عليه الاغريق..) ويقول أيضاً (.. تعرض المرتزقة الاغريق لهجوم الاكـراد قـرب مـدينة-زاخـو- كـمـا أن اتصال الاغريق بالكردوخي- الكورد- تم أولاً في هذه المنطقة في كوردستان).(٣)

يقول "وايسباخ" : كاردوخوي: شعب سكن أعـالي دجلة وكـانت الحـدود الشمالية لمنطقتهم هي الفرع الكبير لدجلة، كينتريتيس- بوهتان صو حالياً- وبعد مايصب في دجلة فأن الأخيرة كانت تشكل الحدود الغربية لهذه المنطقة، حيث الصخور العالية التي تبدأ من الانحدارات العميقة والواسعة للنهر ولايوجد أي طريق على سـواحله، وكـانت منطقـة الكاردوخـيين تنتـهي بأنتـهـاء المناطق

الصخرية قرب قرية المنصورية الحالية، وبذلك فأنها تعني -بوهتان- اليوم.
تعرف الاغريق على- الكاردوخيين- أثناء رجوع العشرة ألاف، وقادهم كسينوفون، واصفاً الطابع الجبلي للبلاد بالتفصيل، والمعارك الضارية التي واجهها الجيش اليوناني أثناء إنسحابه رغماً عنه ضد أناس كانت لهم خبرات جيدة بالأمور الحربية ولكنهم متوحشون.
وقد كان الكاردوخيون مسلحين بأقواس بطول ثلاثة أذرع يضعون اقدامهم اليسرى عند إستعمالها، على تهايتها وكان طول سهامهم ذراعين تخترق الدروع والقمصان المعدنية حيث تمكن الأغريق من إستعمالها بصورة آخرى على الرمي. إستعمل الكاردوخيون المقلاع كسلاح... ويذكر "كسينوفون" إن جنداً يعد بـ ١٢٠,٠٠٠ رجل قاموا بحملة على بلاد الكاردوخيين، فأبيد آخر رجل فيهم، وخسر اليونانيون أنفسهم الذين صاحبوا - كسينوفون- أثناء السبعة أيام من مرورهم في هذه البلاد اكثر مما خسروا خلال حملتهم الطويلة.
ونادراً ما دونت أخبار عن الكاردوخيين بعد -كسينوفون-.
ويستند -ديودورس- اما على معلومات كسينوفون وإما على مشارك آخر في الحملة وهو سوفايتيتوس الذي يذكره اسطيفان البيزنطي بأنه كتب- أناباز- ذاكراً فيه الكاردوخيين.(٤)
ويذكر الدكتور جمال رشيد في كتابه المذكور أيضا «... لم يستمر الاسكندر الاكبر في السير نحو بلاد الكاردوخيين وبعدما قطع بلاد مابين النهرين عبر دجلة قرب فيشخابور الحالية وثم رحل مع الساحل الأيمن للنهر على يسار جبال -كوردياي-»(٥)
ويقول الدكتور رشيد أيضاً "... وبعد وفاة يوليان في ٣٦٣م أجبر- أيوفيانوس- على ترك خمس مقاطعات حول دجلة لسابور الثاني ومن بينها- كوردويين. يسمي اميانوس ماركلينوس وزوسيموس هذا الشعب: كاردوييون، يأتينا إسم منطقة كوردواييون في الترجمة الارمنية لاوزابيوس بشكل (كوردوواكوك) ويسميها أجاثا نجيلوس الأرمني مرة: كوردو وايتون وكوردووتاك- ثانية وكوردوخ مرة آخرى»(٦)
وقد أثرنا الأتيان بهذه التفاصيل الصغيرة عن التاريخ الكوردي القديم للأشارة الى حقيقة التواجد الكوردي-عرقياً- في كوردستان ومنذ عصور سحيقة، يرجع أوضح الاشارات منه الى القرن الخامس قبل الميلاد، وبشكل لايقبل الشك، ونقصد إشارات (زينفون- كسينوفون) اليوناني المتكررة الى -الكاردوخيين- إضافة الى إشارات أقدم، بالامكان الوثوق علمياً من صحتها اذا توفر البحث العلمي الرزين وادواته عند الباحث الكوردي، لقد ورد إسم الكورد وبأشكال عدة في مدونات الشعوب المجاورة للكورد مثل الارمن والاشوريين وغيرهم.. وإستناداً الى ماسبق وهو بلاشك غيض من فيض، فالحق الكوردي في الوطن الكوردستاني متجذر في عمق التاريخ، وهذه الجذور الراسخة منحت الكوردي الحق القانوني في كوردستانيته، وهو بالتالي ليس مواطناً طارئاً على المنطقة، لم يأت الى (كوردستان) غازياً طارئاً بفعل ظاهرة عارمة، بل كان هنا وفي اوثق الدلائل منذ الالف الاول قبل الميلاد، وهو تاريخ عميق يفتقر اليه الكثير من شعوب الشرق، ففي حين صارت المواطن الجديد لهؤلاء أوطاناً لها حدود الجغرافية-السياسية المعلمة- ولعوامل عدة تتالت الخطوط الحمراء التي شطرت الوطن الكوردستاني بين دول جديدة في الخارطة (الجيو-سياسية)، وجدت فعالياتها النخبوية الرائدة في -الكوردي العتيد- إشكالاً حدودياً، فلا هو يترك- هذه الارض- ولا هو قادر بالتصديق بالخطوط الحمراء المستحدثة: يقول ن.أ. خالفين (... ورغم ذلك وحتى بعد تحديد الحدود فقد ظلت القبائل الرحالة العديدة تتجاهل وجودها، وإستمرت هي في عبور الحدود معترفة فقط بالسلطة التي تحسن معاملتها في تلك اللحظات).
وقد كتب القنصل الانكليزي في شرقي تركيا، تايلور بهذا الصدد "أن المواطنة المزدوجة وإنعدام النظام على الحدود يولدان مالا حصر لها في المشاحنات والخلافات بين حكومتي ايران وتركيا، والاكراد الذين يشعرون وكأنهم في وطنهم في كلا القطرين، يعبرون الحدود متى شاؤوا أو وجدوا ذلك متفقاً مع مصالحهم».(٧) إن ضبابية (الانتماء الكوردي) الى الدول التي قسمت كوردستان فيما بينها، وبعد ظهور الدولة العراقية الحديثة عام ١٩٢١ بحكم تنامي المصالح البريطانية في الشرق في اعقاب الحرب العالمية الاولى، إن هذه الضبابية، ظلت ملازمة للمواطن الكوردي طيلة النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، حيث بقي الانتماء الكوردي الى وطنه (كوردستان)، يمثل المرتبة المتقدمة في وعيه، وبصورة خاصة في المناطق المحاذية للخطوط الحمراء الناتجة من الاتفاقيات المتتالية لرسم الحدود، والتي تم ترسيم خطوطها خاصة في النصف الاول من القرن التاسع عشر «لقد سئل الاكراد في مسألة تخطيط الحدود هذه أقل من الجميع. وبمجرد أن يعلن المفوض التركي أن عشيرة ما (طائفة متنقلة) تعود الى تركيا حتى تكون مسألتها قد حلت في الأغلب لصالح تركيا»، «ومن الواضح ان هذه اللجنة وكذلك جميع اللجان الآخرى، لم تعمل ولم تستطع ان تعمل أي شيء ذات أهمية لحسم المسألة التي فيها يشخص بكل بروز الاكراد الذين يهدفون الى الانطلاق من ربقة السيطرة التركية منها والفارسية».(٨)
إن مهندسي إتفاقيات الحدود وخاصة من القوى الدولية التي بدأت تساهم في تهدئة الاوضاع الحدودية بين الدولتين الجارتين العدوتين، الدولة العثمانية والايرانية الفارسية، كانت تنطلق من مبدأ حماية مصالحها هي بالدرجة الاولى، ويقول الجغرافي الروسي البارز (فينوكوف) «بأنه لدى تخطيط الحدود، فأن مصالح الدولتين الاسيويتين المعنيتين أوشكت ان تأتي في آخر القائمة. فقد كانت الفكرة الطاغية عند المفوضين الانكليز هي توسيع ممتلكات تركيا على حساب فارس التي كانت تفضل النفوذ الروسي على الانكليزي، وتحقق هذا الهدف فعلاً».(٩)

ويقول الدكتور (نورس) «وبالرغم من معاهدات الصلح، التي كانت مجرد إرجاء موقت للخصومات، لم يكن هناك سلام حقيقي بينهما».(١٠).

ويتحول الكورد بفعل جغرافية بلادهم ضحايا الساحة الساخنة في ظل هذا الصراع المتواصل وغياب السلام. وكان تدهور العلاقات العثمانية. الفارسية ينعكس سلبا وبوضوح على الاوضاع في كوردستان والتي تحولت بفعل المعاهدات الثنائية بين الدولتين الى منطقة حدودية ممتدة من الشمال من قمم آرارات ومروراً بسلاسل جبال زاكروس المتوازية والمنحدرة نحو الجنوب الشرقي فصارت معابر الجبال هذه وقممها تحصينات حدودية للدولتين المتصارعتين وصار الكورد في شرق سلاسل زاكروس من غربها، أسرى هذا الصراع المستديم، ووقع عليهم عبء الحفاظ على أمن الحدود هذه وسلامتها، والكورد اصلاً وكما أسلفنا لايعترفون بهذه الحدود في تلك الفترة، وبدت حركة التنقل للقبائل الكوردية الرحل، وهي حركات موسمية تبحث عن الماء والمرعى، بدت وكأنها تثير قلاقل حدودية، ومشاكل خلافية بين الدولتين، العثمانية- الفارسية، واصبح من المعتاد بعد هذه الفترة إلقاء الصراعات الحدودية على الكورد، وكأنهم دخلاء في هذا الوطن، وبدأت الفعاليات السلطوية العثمانية والفارسية تحاول الحصول على ولاءات الاراء والقبائل الكوردية وفقاً للخارطة الجغرافية السياسية المعتمدة عنها وفقا للوثائق والمعاهدات فيما أهملت الاوضاع الاجتماعية وتشابك العلاقات بين القبائل الكوردي المرتبطة ببعضها بوشائج القرابة، فذهب الكورد ضحية (حرب الولاءات)، لقد اورد (نوري) في هذا الصدد «ومنذ آواخر سنة ١٧٧٣م (١١٨٧هـ) حدث اكثر من مرة أن اوشكت الحرب على الأندلاع بين الدولتين الفارسية والعثمانية، ولقد لعبت عوامل عديدة دورها في تدهور العلاقات بينهما، ووصل هذا التدهور ذروته عندما شن كريم خان الزند هجومه الكبير على العراق في سنة ١٧٧٥م (١١٨٩هـ) وذلك عقب الهزيمة التي منيت بها قواته في شمال العراق. لقد كانت المنطقة الكوردية مسرحاً للاضطرابات والفتن وكثيراً ما كان حكامها يثور بعضهم على بعض، والذي يهزم منهم يفر الى بلاد فارس لاجئاً ومستعيناً، وكانت صلة هذه المطاحنات بالعلاقة العامة بين بلاد فارس والعراق تزداد وضوحاً كل سنة. خاصة وإن كريم خان الزند كان كوردياً.

فأعطى الصراع العنيف بين الامراء الاكراد- والذي لايهدأ- فرصته للتدخل في امور العراق»(١١)

وبعد زوال الامارات الكوردية في النصف الاول من القرن التاسع عشر في اعقاب توجه السلطة العثمانية نحو المركزية، بدأت القوات العسكرية للامبراطورية العثمانية ترابط على الحدود مع الدولة الفارسية، ولما شعر الكورد بالغبن والاحباط، حتى هؤلاء حتى الذين كانوا الى الأمس القريب يجدون في (الاستانة) ملاذاً، حتى هؤلاء بدأوا يتململون، ومنهم (يزدانشير) حيث يقول د. قاسملو: "وكانت اعظم انتفاضات هذه الفترة تلك التي إندلعت اثناء الحرب الروسية- التركية (١٨٥٣-١٨٥٦) تحت قيادة البطل الوطني يزدانشير، وقد اندلعت الانتفاضة في منطقتي هكاري و بوتان ثم انتشرت على عجل. ما أن مضى وقت قصير حتى إستطاع يزدانشير أن يحرر كل المنطقة الممتدة بين بحيرة وان وبين بغداد».(١٢)

ويقول أيضاً «والانتفاضة الكوردية الهامة الآخرى هي تلك التي قادها الشيخ عبيدالله شمزينان. وقد إندلعت عام ١٨٨٠، وقد أفاد الشيخ من سلطته فوحد القبائل الكوردية وحرر كل المنطقة بين بحيرة أورميا وبحيرة وان».(١٣)

وفي خضم صراع الحدود بين الدولتين، وعدم الوصول الى أدنى حدود التفاهم على (الأمن الحدودي) مع وجود الكورد الذي ينتقل بولائه المتردد دوماً من هذا الخندق الى ذاك، في خط سير مستديم يحفظ لهم بيتهم ووجودهم. ولعل الاشارة الى الحركة السلسة لولاءات الامراء البابانيين مطلع القرن التاسع عشر تؤكد حقيقة عدم الاعتراف الكوردي بالخطوط الحمر وبالخارطة الجيو السياسية المستحدثة، وقد ظل الامير الباباني (عبدالرحمن باشا) ولعقود يحاول صون استقلال الامارة من خلال الأفادة من لعبة (أمن الحدود) (ففي حوادث سنة ١٢٢٠ هـ، يشير الشيخ رسول الكركوكلى الى حركة- عبدالرحمن باشا- حيث يقول «أما مايتعلق بقوات أربيل وبيكات الكرويين المنشقين فقد ارسل (١٤) قوة لمحاصرتهم، كما أحاطت تلك القوات بالهاربين من كل جانب... ومن كركوك سارت قوة أخرى بقيادة خالد باشا لتعقيب عبدالرحمن باشا حتى وصلت الوادي المسمى قزل دره وعسكرت هناك للراحة، أما عبدالرحمن باشا فقد قطع الطريق وسد نهر الدربند وأقام التحصينات اللازمة وفي الوقت نفسه أرسل رسله الى حاكم أيران يرجوه التوسط لأنقاذه والسماح بالالتجاء إليه.» (١٥)

إن الكورد وبعد أن شطرت الخطوط الحمراء وطنهم كوردستان بين الجارتين اللدودتين (تركيا-ايران)، عقب سلسلة من الاتفاقيات، كانوا ضحية (صراع الحدود)، الآخرون يتصارعون للانتفاع من مزايا وطنهم، ويحاولون تحصين الخنادق المزروعة في قلب الوطن الكوردستاني بالكورد من ذوي الولاءات المحسومة، وكان ذلك صعباً للغاية، ولعل ملحمة قلعة دم دم في مطلع القرن السابع عشر، تؤشر بوضوح إلى فشل السلطات الحاكمة في كل من الدولتين العثمانية والايرانية في إستحصال الولاء المحسوم، والملحمة تشير الى تخوف (الشاه عباس) من (القلعة)، وهي مقامة على أرض كوردية ولأمير كوردي، ورغم كون (الخان ذوالكف الذهبي) من اصدقاء الشاه، فأن ذلك لايشفع له، فهو مشكوك فيه، ذلك يعني أن الكوردي المكشوف ظهره للفارسي في إيران والمكشوف ظهره في الجانب الآخر للتركي فقط يعتبر (آمنا)، اما عداه فهو مبعث إشكالية مستديمة، أي الكوردي من غير الولاء المطلق للقوتين المهيمنتين، كل في ساحته، هو مصدر تهديد لأمن الحدود، إن سابقة (إبادة القوة البرادوستية) في قلعة دم دم

وحصن نارين، ليست رمزاً فقط، بل هي التصور المجسد عند الحاكم الايراني والعثماني، إن الكوردي الجيد هو (الموالي المكشوف الظهر) فقط، وإلا فالتهديد للأمن الحدودي قائم.

إن صورة الكوردي المهدد للحدود، تجسدت بصورة اكثر وضوحاً في نظر الفعاليات السلطوية التي تقاسمت كوردستان، في أعقاب الحرب العالمية الأولى، ومع ظهور الدولة العراقية الحديثة عام ١٩٢١ وبروز مشاكل رسم الحدود مع (تركيا الحديثة)، وبروز خطوط حمراء جديدة، زادت معاناة الكوردي الذي وجد صعوبة في إستيعاب الوضع الجديد..

في اعقاب الحرب العالمية الاولى، وإثر وعود الحلفاء للشعوب الواقعة تحت نير الاحتلال العثماني، وبنود ولسن الأربعة عشر، أستبشر الكورد كما الأرمن والعرب، باطلالة عهد جديد، فيه المزيد من الحرية والاستقلال. تلك الحرية والاستقلال التي حرم منها الكورد وبصورة خاصة مطلع القرن التاسع عشر عبر سيادة المركزية الادارية التي إنتهجها السلطان محمود الثاني وبلغت أوجها ايام السلطان عبدالعزيز "والذي بلغت سياسة المركزية في عهده حداً،، عززت معه فرص العداء للاتراك" (١٦)، وكانت الاجراءات المركزية تلك قد قضت على جميع الامتيازات والحقوق التي سعى الكورد عبر (البدليس) ومع السلطان سليم الاول الاحتفاظ بها وكانت قناعة السلطان سليم إنه قد أقام جداراً بشرياً امام إيران من خلال تحالفه مع الكورد (حيث ضنت الدولة العثمانية: إنها إصطنعت العشائر الكوردية واماراتها الاقطاعية بوصفها حكومات تلعب دور حام ضد إيران)... (فأن العثمانيون إضطروا الى ان يبحثوا في هذه المنطقة عن حلفاء لهم صادقين فتخيروا هؤلاء الحلفاء من العشائر الكوردية)(١٧).

اجل بعد أن أهمل العثمانيون كل الاتفاقيات المبرمة مع الكورد، وبعد أن ادارو ظهورهم لحلفاء الامس، أصبح الكورد في حل من الارتباطات مع هؤلاء، وكانت خسارة الاتراك في الحرب العالمية الأولى، بأستثناء المردود الديني عند الكورد المتمسكين بالسليقة بالدين الاسلامي، كانت هذه الخسارة فاتحة عهد جديد للنخبة من الكورد للخلاص من واجبات (حراس الحدود)، وتوطيد دعائم الامن الحدودي للآخرين، والتحول بالتالي الى حراس لحدود وطن خاص بهم، من هنا إنطلق الكورد، يعملون أسوة بالعرب والارمن في إتجاه كيان مستقل، وكانت ارض كوردستان الجنوبية أو (جنوبي كوردستان- شمال العراق الحديث)، اكثر ملائمة لقيادة هذا العمل وذلك نظراً للنزعات الاستقلالية التي قادتها الامارات البابانية والبهدينانية والسورانية في هذا الجزء وعبر قرون، إضافة الى كون ولاية العراق احدى اكثر الولايات العثمانية إضطراباً وعبر قرون عدة، حيث تشير الاحداث الواردة في كتابي (اربعة قرون من تاريخ العراق-لونكريك) و(دوحة الوزراء) للشيخ رسول الكركوكلي، الى هذه الحقيقة بوضوح، من هنا فأن أرض جنوبي كوردستان كانت المجال الرحب لتنامي الحركة التحررية الكوردية، ومن هذا المنطلق أيضاً بدأ الشيخ محمود يسعى طامحاً في -كيان مستقل- وهو لايعتبر نفسه في هذا المجال أقل شأنا من أي امير عربي آخر، أسعف الحظ بعضهم، حينما فتحت بريطانيا، القوة الاستعمارية الواعدة في المنطقة آنذاك، لهم أحضانها، كان الكورد يأملون خيراً في بعض تصريحات الحلفاء ومن هؤلاء (كليمانصو) رئيس وزراء فرنسا والذي كان آنذاك رئيساً لمؤتمر الصلح في باريس والذي قال (لقد أثبت الاتراك نتيجة ادارتهم السيئة للاقوام من غير الترك واستبدادهم عبر العصور،إنهم لايستحقون ادارة الاقوام من غير الترك، واذا إستمر الحال هكذا، ينبغي ان لانسمح ببقاء تلك الاقوام تحت الادارة التركية."(١٨)

يقول اسماعيل بيشكجي "اما الوضع في شرقي كوردستان (إيران) وجنوبي كوردستان (العراق) فيختلف الى حدما، إذ لم تحقق سياسات التعريب والتفريس هناك نجاحاً كبيراً في اوساط الكورد. أو لأن هاتين الدولتين لم تتصرفا بما فيه الكفاية من الأصرار على تنفيذ سياستهما في التعريب والتفريس. ففي إيران يجد الفرس أنفسهم في وضع الاقلية العرقية اذا ما اخذنا بنظر الاعتبار تشكيلة المجتمع الايراني، متعدد القوميات مثل الاذريين والاكراد والتركمان والبلوش والعرب وظل العراق تحت الانتداب البريطاني (مستعمرة) حتى عام ١٩٣٢ ولم يمارس الانجليز والفرنسيون ولاغيرهم من القوى الامبريالية داخل مستعمراتهم أية سياسة ترمي الى إستئصال الهوية العرقية.» (١٩)

في كوردستان الجنوبية، كان الكورد اكثر إستعداد ونزوعاً الى الاستقلال، ولما كان الانكليز في اعقاب الحرب الاولى في حالة من الانهاك والضعف فأنهم لم يجدوا بداً من الاستعانة بشخصية الشيخ محمود، (كانت السليمانية قد خرجت تماماً من السيطرة العثمانية، كان الميجرنوئيل الحاكم السياسي البريطاني في السليمانية اما ويلسن فكان حاكما عاماً على العراق، وكانت سياسة ذلك اليوم تقضي بوجود حكومة كوردية، كان الانكليز قد قدموا البلاد حديثاً، والناس لم تفهمهم بعد، وهم أي الانكليز مازالوا يرددون شعارات الحرية للشعوب، وعندما علموا ان الشيخ محمود رجل مقتدر ومتنفذ بدأوا يفكرون في مساعدته، وكان الشيخ محمود من جانبه يرغب في تلك المساعدة لاقامة كوردستان الكبرى» (٢٠)

لكن المتغيرات المستجدة في الساحة التركية وهي بقايا الدولة العثمانية، والظفر الذي ناله (مصطفى كمال) في صراعه مع السلفية العثمانية والاطماع اليونانية، وبروز الخطر السوفياتي، جعل الانكليز يغيرون من مواقفهم وخاصة الموقف من مسألة الموصل: «... ألحقت كوردستان العراق- التي كانت تسمى ولاية الموصل. بدولة العراق بعد الحرب العالمية الاولى دون إستفتاء الشعب الكوردي في الاجراء. وذلك مراعاة لمصالح بريطانيا والاتراك وباقي الحلفاء في المنطقة وبعد العديد من التصريحات والمعاهدات والاتفاقيات، اعطى اكراد العراق ضمانات تخص حقوقهم القومية والسياسية والثقافية ومن بين هذه

الاتفاقات نذكر على سبيل المثال مايلي:
-الاعلان العراقي البريطاني المشترك ١٩٢١
-الاعلان العراقي البريطاني المشترك خريف ١٩٢٢
-اعلان عصبة الامم الصادر سنة ١٩٢٥ فيما يخص عودة لجنة التحقيق لكوردستان.
-المعاهدة العراقية الانجليزية الاولى ١٩٣٠
-القانون الخاص باللغة المحلية الصادر ١٩٣١
-إعلان سنة ١٩٣٢ عند انضمام العراق الرسمي لعصبة الأمم»(٢١)

هكذا بدا الوضع الكوردي في العقدين الثاني والثالث من مطلع القرن العشرين، وعود تليها مواقف تراجعية، تدخل في روع الكورد آنذاك قذارة اللعبة السياسية، التي كان من الصعب على الكوردي إستيعاب مفرداتها " أجل كان الكورد يأملون ان ينقذهم الانكليز، وهو محرر الشعوب الصغيرة، لكن ماشاهدوه من ظلم الانكليز كان اسوأ من مظالم الاتراك" (٢٢)

ولكن الكورد يتحولون تدريجاً الى عنصر إشكال حدودي، وسلسلة الاتفاقيات المدونة ادناه تمنحنا الدليل:
- معاهدات الحدود الموقعة مع تركيا وبمساندة بريطانية سنتي ١٩٢٣و١٩٢٦
- معاهدة سعد آباد بين إيران والعراق وتركيا سنة ١٩٣٧
- معاهدة (حسن الجوار) بين العراق وتركيا سنة ١٩٤٧
- حلف بغداد سنة ١٩٥٥
- اتفاقية الجزائر سنة ,١٩٧٥(٢٣)

وهكذا شطرت المعاهدات المتتالية التكوين الاجتماعي الكوردي إلى مثلثات حدودية في حافاتها علامات حدود حمراء، تحد من حركة الكوردي، الذي كان معتاداً في القرون السابقة على حرية التنقل والحركة، ومع بروز الحكومات القومية الاكثر انغلاقاً في مطلع القرن العشرين، عدت حركات الكورد هذه خروجاً عن القوانين المرعية للحكومات الثلاث، وعليه سنت المعاهدات السالفة، وانقلبت صورة الكوردي من مطالب بحقوقه الطبيعية في وطنه الى صورة عميل لهذه او تلك من الحكومات المجاورة، وهكذا ذهب (الكورد) ضحية التقسيم الجائر للحدود. في تكريس مخجل لمنطق القوة ونسيان المستحقات التاريخية لشعب ظل موجوداً هنا منذ عشرات القرون وربما كان احد أقدم شعوب المنطقة واكثرها عراقة، ومع ذلك لعب التقاطع المربك عند القادة الكورد مطلع القرن العشرين، والذين في غمرة التشبث بمثالية قضيتهم واجندتها المشروعة في التحرر والاستقلال، لم يستوعبوا التناقضات السياسية والمصالحية بين رغبات الحلفاء والقوى الاقليمية الواعدة مثل (الكمالية في تركيا والرضائية في ايران والفيصلية في العراق) حتى اذا إلتفتوا الى الواقع المرير وجدوا أنفسهم مجرد علامات حدود تخلق التشابك في العلاقات التجاورية بين الحكومات الثلاث، وفي النهاية بدا في السهل على حكومات المنطقة، نعت قادة الكورد بـ (الخيانة) و(العمالة)، هذا في ظرف كانت قضايا الشعوب غائبة تماماً من أجندات الساسة آنذاك. وتحول (أمن الحدود) على مر العقود إلى «مسمارجحا» الحق من خلاله اكبر الأذى بالكورد على طرفي الحدود، وحتى عندما كانت الانظمة السياسية الحاكمة في المنطقة تحاول تسويق بعض مشاكلها الداخلية الى قنوات تصريف خارجية لأبعاد الانظار عن تلك المشاكل كان الأشكال الكوردي على الحدود حاضراً دوماً لأعداد الأغدار المناسبة لأختلاق الذرائع والحجج بغية إثارة نزاع حدودي كان ضحاياه في نهاية المطاف (الكورد)، الذين ومن خلال التشبث بالارض التي يقدسونها توزعوا في خنادق الولاءات المرحلية حسب المصالح الآنية واحياناً إستناداً الى مبدأ (عدو عدوي صديقي) والذي تسبب في كثير من الاحيان في خلق مصائب كارثية، ولازال الكورد حتى الآن في منظور الدول الحاكمة له، مشكلة حدود، وماهم بمشكلة حدود، ولكن مصالح الدول تلك هكذا تقتضي، ومن خلال ذلك المنظور الأحادي الجانب، أهملت الحقوق القومية والسياسية للكورد، والذين بدورهم لم يجدوا بداً من إستمرار النضال وعبر أساليب متعددة للوصول الى أهدافهم المشروعة من جهة وصيغ تعايش سلمية مقبولة مع الامم المجاورة والحاكمة من جهة أخرى.

الهوامش:

١- زكي.ن.م السابق ص ٣٨-٤٦
٢- باقر، د. طه، مقدمة في تاريخ الحضارات ج١ ط بغداد ١٩٧٣ ص١٨٠
٣- سعداللة ،صلاح، مسيرة العشرة آلاف عبر كوردستان، بغداد ١٩٥٣ ص٢٩
٤- احمد، د. جمال رشيد، دراسات كوردية في بلاد سوبارتو، بغداد ١٩٨٤ ص٧٢-٧٣
٥- رشيد، ن.م السابق ص٧٤
٦- رشيد، ن.م السابق ص٧٨
٧- خالفين. ن.م السابق ص١٦
٨- خالفين. ن.م السابق ص٩٤
٩- خالفين. ن.م السابق ص٩
١٠- نوري. ن.م السابق ص٢٩٧
١١- نوري، ن.م السابق ص٢٣٦-٢٣٧
١٢-قاسملو. ن.م السابق ص٤٨
١٣- قاسملو ن.م السابق ص٤٩
١٤- والمقصود هو الوزير (علي باشا) والي بغداد
١٥- الكركوكي، الشيخ رسول، دولة الوزراء، بيروت ص٢٣٠
١٦- ناوخوش، سلام، هوكارەكانى لكاندنى ويلايەتى موسل، اربيل ٢٠٠٠ ص٤٢
١٧- بيشكجي، النظام في الاناضول، ص١٢٦
١٨-بلة. ج. شيركو، كيشەى كورد، ت: محمد باقي، ١٩٩٠ ص٦٥
١٩- بيشكجي، كوردستان مستعمرة، ص١٩٢
٢٠- السجادي، علاءالدين، ميژووى راپەرينى كورد، ئيران ١٩٩٦ ص٥٥
٢١- مجلة دراسات كوردية، العدد ٤ (٨)، ١٩٩٣ ص٥٧
٢٢- السجادي، ن.م السابق ص٥٧
٢٣- مجلة درات، ن.م العدد السابق ص٥٨.